المجلد: 17 العدد: 02/ مارس 2022
ص: 219 - 235
ISSN: 1112-7015
EISSN: 2602-5973

الرؤية والسميوزيس في قصيدة أنبياء وشياطين لعثمان لوصيف "قراءة في الدلالات المفتوحة"

THE VISION AND SIMIOSIS IN THE POEM OF THE PROPHETS AND DEMONS BY OTHMAN LUCIF "READING IN THE OPEN SIGNS"

سحانين مريم*[1] . أد محمد برونة[2]
[1] جامعة وهران 1 (الجزائر). sehaninemaroua@yahoo.com
[2] جامعة وهران 1 (الجزائر). medberrouna@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2021/05/31 تاريخ القبول:2021/11/03 تاريخ النشر: 2022/03/28

ملخص: يعتبر شعر "عثمان لوصيف" وجها من أوجه الإبداع، والذي يعري واقعا مريرا ومتأزما تتخبط في أوحاله المجموعة التي ينتمي إليها، وعليه جاءت هذه الدراسة لتعنى بمعرفة كنه العلاقة التفاعلية بين الرؤية للعالم وسيرورة السيميوزيس في قصيدة "أنبياء وشياطين"؛ قصد رصد الدلالة التي تتمخض عن رؤية الشاعر للعالم؛ و ذلك باختراقه لما هو قائم ونفاذ بصيرته لجوهر العلاقات الإنسانية والاجتماعية والنفسية والأفكار والتطلعات والتصورات التي تعبر عن الإديولوجيات المرتبطة بالضمير الجمعي للفئة التي ينتمي إليها، ومعرفة طبيعة الدلالات التي وظفها لتحقيق الفاعلية والانسجام بين البنية السطحية والبنية العميقة بغية تحقيق أبعاد عميقة لإنتاج روح الدلالة، وهذا ما أفضى إلى معالجة هذه القراءة في ثلاث جزئيات رئيسة؛ إذ سلطت الجزئية الأولى الضوء على مقاربة اصطلاح الرؤية للعالم وجذوره الفلسفية، وفي الجزئية الثانية تم تناول السيميوزيس والدلالات المستغرقة، أما الجزئية الثالثة فاهتمت بقراءة الدلالة المفتوحة في قصيدة "أنبياء وشياطين" لعثمان لوصيف.

الكلمات المفتاحية: الرؤية للعالم؛ السيميوزيس؛ السيرورة؛التفاعل؛الدلالة؛عثمان لوصيف.

Abstract : The poetry of "Osman Lucif" is a facet of creativity, which features a bitter and persistent reality in which the group to which it belongs is clouded. To monitor the meaning of the poet's vision of the world; To penetrate what exists and to gain insight into the essence of human, social and psychological relations, ideas, aspirations and perceptions of the ideologies associated with the collective conscience of the group to which he belongs, and to know the nature of the connotations he has used to achieve efficiency and harmony between the surface and deep structures in order to achieve profound dimensions for the production of semantics, which has led to the treatment of this reading in three key parts.The first part highlighted the approach of the term vision to the world and its philosophical roots, the second part dealt with semiotics and indulgent connotations, and the third part concerned itself with reading the open connotation of Osman Laucif's "Prophets and Demons"
keywords: worldview; semiosis; process; Othman Lucif; connotation.

1. مقدمة:

إن وقفة تأملية لإشكالية الرؤية والسميوزيس تثبت أن العالم بكل موجوداته هو عبارة عن مزيج لوقائع وأحداث يصطلح عليها بالعلامات كون هذا العالم متقوقع في نسق متسلسل من العلامات البانية له، فالعلامة إذا كانت كيانا منفتح الدلالة قابعا في الاستغراق فإنها تحيلنا إلى أنفاق حالكة ومتشعبة كلما ظننا

* المؤلف المرسل

لوهلة أنه تم بلوغ خط النهاية اكتشفنا أننا نغرق في التعقيد المتماهي، وكأن الفكرة الجوهرية المختمرة في ذهنياتنا إزاء العمل الإبداعي تذهب أدراج الرياح عائدة بنا للنقطة الصفر، وهذا ما ولد جدلية مفادها: هل جمالية الإبداع يحققها الدال أم المدلول أم هما معا؟ ومن هنا بدأت تختمر فكرة معرفة الحقيقة القابعة خلف هذا السر.

لا يمكننا تمثيل العلامة إلا بالمرأة الحامل لعدة توائم وكل توأم حامل لجينات وراثية وعرفية وجسمانية معينة موغلة في التشعب وخاضعة لصفة الدينامية والنمو بعيدا عن المباشرة، والعلامة لا تُدرك إلا عن طريق فك شِفراتها بالاستعانة بعلامات أخرى تتوالد الواحدة من الأخرى دواليك، وهذه المطاردة اللامتناهية للنص المنفتح هي ما اصطلح عليه "**بيرس Peirce**" بسيرورة السميوزيس **Sémiosis** المنتجة للدلالة.ومن هذه التوطئة تطفو إشكالية هذه الدراسة إلى السطح وهي: إلى أي مدى تمكن الشاعر من تطوير أشكال خطابه التواصلي؟ وهل استطاع تطويع السياق الخارجي لصالحه حتى يمرر رسالة مكثفة سميكة تماثل عالمه برؤية ثاقبة تكتنز دلالات منفتحة؟

والإجابة على هذا الطرح استدعى الخطة المنهجية الآتية والتي تم تقسيمها إلى ثلاثة محاور:

المحور الأول: في مقاربة اصطلاح الرؤية للعالم الذي تم عرضه مفهوما وإجراء.

المحور الثاني: السميوزيس والدلالات المستغرقة والذي تناول فلسفة "بورس" البراغماتية المنبثقة من المنطق الرياضي.

المحور الثالث: وتم فيه مقاربة قصيدة عثمان لوصيف "أنبياء وشياطين" لمعرفة مدى انفتاحها الدلالي وطبيعة الرؤية التي عبر عنها الشاعر.

لقد استدعى الطرح الاستعانة بدراسات نقدية جادة تصب في هذا الحقل المعرفي كالدلالات المفتوحة "مقاربة سيميائية في فلسفة العلامة " لأحمد يوسف، والسيميائيات والتأويل "مدخل إلى سيميائيات ش.س بورس" لسعيد بنكراد، والمادة الديالكتيكية وتاريخ الأدب والفلسفة للوسيان غولدمان، والثابت والمتحول، بحث في الإتباع والإبداع عند العرب لأدونيس.

في مقاربة اصطلاح الرؤية للعالم (La vision du monde) :

1.2 في مفهوم الرؤية (La vision) :

اكتسح هذا المصطلح عدة حقول معرفية بما يتماشى وطبيعة كل تخصص، لكنه مازال يحمل صبغة الغموض والتعقيد لأنه يحمل معاني متعددة في كل حقل، فهو منغمس في عمق فلسفة وفكر "دلتاي، وهيجل، وماركس، وكانط"، وقد هاجر إلى حقل العلوم الإنسانية والحقل السوسيولوجي ليصبح آلية إجرائية تستعمل لفهم الأعمال الإبداعية بعدما أرسى دعائمها "لوسيان غولدمان L. Goldmann"، ومن أجل ذلك كان مفهوم **الرؤية للعالم** بمثابة القلب النابض داخل النص، فهو الذي يقتفي المتلقي أثره

محدثا زلزلة في البنية العميقة الدالة لكيان النص بحثا عن أبعاده المضمرة، ولا يكاد يخرج مفهوم **الرؤية** في حيز العمل الإبداعي عن إطار معنى "وجهة النظر" التي يرى من خلالها المبدع واقعه بكل حيثياته، وقد ميز "أدونيس" بين **الرؤية** و **الرؤيا** قائلا إن:<< الفرق بين رؤية الشيء بعين الحس ورؤيته بعين القلب هو أن الرائي بالرؤية الأولى إذا نظر إلى الشيء الخارجي يراه ثابتا على صورة واحدة لا تتغير أما الرؤيا بالرؤية الثانية فإذا نظر إليه يراه لا يستقر على حال وإنما يتغير مظهره وإن بقي جوهره ثابتا >>1 إن الرؤية الأولى – حسب أدونيس- مرتبطة بالجانب الحسي الخارجي المنماز بالثبات، بينما الثانية فهي مرتبطة بالقلب ومتغيرة لا تكاد تستقر على حال. وعليه يمكن القول: إنه من الضروري محاولة تقليص الهوة بين مصطلحي **الرؤية والرؤيا**، **فالرؤيا** بالمد تنبثق عن حلم تؤثثه تصورات وطموحات مختلفة بغية إحداث تغيير وتجديد في عالم الموجودات بطريقة تميل إلى الخيال أكثر، أما **الرؤية** بالتاء فهي حالة تجعل المبدع يوجه زاوية النظر عنده ويجندها لإثبات كينونته تجنيدا لا يقبل التزييف والموارية دون الخروج عن حيز زمرته الاجتماعية التي ينتمي إليها، وبالتالي يكون مصطلح **"الرؤية"** هو الأقرب إلى المفهوم المقنن لأنه يتفتق عن رؤية قلبية وعقلية حاملة لتصورات ووجود وكينونة المبدع ومواقفه وأفكاره إزاء واقعه فيصب طاقته في هذه الموجودات إما بالدعم والموافقة أو النفي والنكران.

وتتحدد الرؤية للعالم عند "غولدمان"بأنها: << هي وجهة نظر متماسكة وموحدة حول مجموع الوقائع، إنه نادرا ما يكون فكر الأفراد – مع بعض الاستثناءات القليلة- متماسكا وموحدا، إن فكر الأفراد وطريقة إحساسهم الخاضعة لما لا نهاية من المؤثرات والذين يعانون ليس فقط من فعل الأصوات الأكثر تنوعا، بل أيضا من فعل البنية الفسيولوجية بالمعنى الأشمل. إنهم يقتربون دائما أقل أو أكثر من بعض التماسك، لكنهم لا يبلغونه إلا استثنائيا، ولهذا السبب يمكن تماما وجود مسيحيين ماركسيين ورومانطيقيين يحبون تراجيديات راسين ...>>2 من خلال مقولة **"غولدمان"** نستنتج أن "الرؤية للعالم" هي تعبير عن الضمير الجمعي بنظرة متحدة بين الأفراد حول واقعهم بعيدا عن التفاضل، رغم أن أفكار الأشخاص لا يمكنها أن تتلاءم إلا في النادر القليل نتيجة لمؤثرات لا حصر لها تتحكم في إحساس وتفكير الأفراد إضافة إلى بنياتهم الفسيولوجية، وبالتالي تكون الرؤية بنية رئيسة في العمل الإبداعي، فهي كم متراكم من المواقف والقضايا والأفكار والطموحات التي توحد جماعة تعيش في حيز معين يخضع لعدة مؤثرات وعادات وجينات فتكون حمولة لوعاء ضميرهم ويأتي المبدع الحق ليكون لسان حال جماعته يلج فيها ويكسبها عمقا رؤيويا لا يستطيع غيره من العامة أن يجسده بهذه البراعة، ذلك أن المبدع << ينفرد بطاقة رؤيوية تنفذ إلى جوهر الحقائق الأساسية في الوجود وبقدرة على التعبير تتخطى اللغة التقريرية إلى لغة مجازية إيحائية، وعندما تتعمق رؤيا الأديب وتتضح يبلغ تعبيره أبعادا رمزية وأسطورية تعيد خلق اللغة والوجود >> 3 نخلص من هذه المقولة إلى أن المبدع يمتلك بصيرة ثاقبة تتآكل فيها الأفكار فيخترق بها ما وراء المرئيات من معان، متجاوزا باللغة كل ما قيل بإيحاء رمزي أسطوري إلى ما لم يتم التصريح به، وذلك بإحداث فوضى عارمة تتعدى المظاهر الطبيعية للأشياء مشكلة رؤى تصب في مضامين وعبارات وصور وإيقاعات ...ويبقى المحرك الفاعل في عملية الإنتاج الإبداعي وفي تمتين قوة الرؤية هو

روح الجماعة فلا تظهر قيمة النص إلا << من خلال الإطار الذي كتب فيه ذلك أن العمل مهما أغرق في الفردية يتوجه إلى الخارج. فهناك بعدان في كل عمل فني، بعد اجتماعي (منطلق من الواقع المعاش) وبعد فردي (منطلق من خيال الفنان) >> 4 وهذا ما يعزز مفهوم غولدمان للرؤية التي يصعب إنتاجها في غياب الجماعة ويصبح المبدع عاجزا في معزل عن محيطه، فالعناصر التي تسهم في بلورة الرؤية هو جوهر المجتمع بمختلف مكوناته وتناقضاته، إضافة إلى التجربة الحياتية التي تساعد المبدع في فهم واقعه بدقة كبيرة،مستعينا على ذلك بحدسه الذي يلهمه القدرة على النفاذ إلى عمق الواقع، وتجربته الشعرية التي تمكنه من إضفاء جمالية على رؤياه. حتى أن " **جيمس فايبلمان J K Feibleman**" لم يخرج عن رأي غولدمان في مفهوم الرؤية قائلا: << إن الفلسفة المهيمنة لدى شعب ما، هي ما يمايزه عن غيره ... إنها ما يلون أفكار الأفراد ومشاعرهم وأفعالهم، ويحدد اختيارهم لغاياتهم الاجتماعية ... فهي العنصر الأكثر قوة على مستوى عناصر البناء الاجتماعي ومكوناته >> 5 وتبقى الرؤية للعالم خيطا رفيعا يصل البنى القابعة في ذهنيات زمرة ما بذات المبدع وهذه البنى تتراص فيما بينها مشكلة نسقا حيويا عجيبا ملغما ومسلحا يصطلح عليه بالعلامة، وهكذا تصبح الرؤية ذائبة وسط كم هائل من العلامات الرمزية المشحون كل منها بماثول وموضوع ومؤول داخل عجلة تسمى "**السميوزيس**"، فما السميوزيس؟ وما علاقته بالرؤية للعالم؟

2. السميوزيس والدلالات المستغرقة :

إن المبدع يمر على المحك في لحظات من المخاض العسير ليهدينا باكورة معاناته متمثلة في نص مكتمل الصورة منذ تكوينه علقة وحتى اكتمال جنينيته، وهذا النص ما هو إلا تنسيق رهيب للفوضى والتشويش الحاصل في ذاته الداخلية – أي المبدع- فيعتصر لنا من ذهنيته أفكارا تكون عسلا مصفى لذة للشاربين يخترق بها عذرية الورقة بحبره الملوث بآفات مجتمعه وآهاتهم وتطلعاتهم فيجسدها في علامات مفخخة، تفاعلت عبر شبكة علائق ثقافية واستحكمت لنظام لغوي يتلاعب بالكلمة ويلبسها إيحاء دلاليا ينبئ عن الانفتاح وزعزعة آفاق الصمت، فاللغة كائن دينامي مرعب كلما زدنا فيه عمقا زدنا خوفا وفضولا في الآن نفسه، والعلامة تستنبط وضعها القيمي داخل نسق متشابك من العلائق القائمة بين جملة من العلامات الأخرى، فإذا سحبت من سلسلة النسق فقدت فاعليتها وحضورها.

بما أن العلامة تقوم في ثنائية "**دي سوسير**" على (الدال/ المدلول) فإن الأول يحيلنا بالضرورة إلى الثاني بصورة ذهنية تتجاوز البعد المحدود إلى بعد أكثر عمقا وإنتاجية لا تُحترم فيه ضوابط المنطق (الاستقراء، الاستنباط، الافتراض)، إنما يعتريها تحول بين بنية الدال السطحية وبنية المدلول العميقة لينفتح أفق التأويل على مصراعيه بأسلوب متشجر يحيلنا لخبايا العمق كلما ظننا لوهلة أننا بلغنا الذروة، وبناء على هذا << الصرح السيميائي الذي شيده "**بيرس Ch S Peirce**" لا يمكن أن يستوعب نفسه بنفسه، فلكي لا تندثر العلامة داخل هذا التوالد اللامتناهي، يجب الإقرار في لحظة ما بوجود اختلاف بين العلامة والمدلول >> 6 لم يكتف بورس بثنائية دي سوسير (الدال/ المدلول) في تركيب العلامة بل تجاوزها معلنا عن طرح جديد في عالم السيميائيات يتأسس على السيرورة التي تسهم في الإنتاج الدلالي ويسمى (**السميوزيس** Semiosis)،

فالسيميائية لا تنفك عن كونها مرتبطة بالوعي البشري، إذ إن العلامة ظاهرة متلاحمة مع كم لا متناه من الظواهر الأخرى بصورة منطقية أساسها الاستدلال، لأن السابق يحيلنا للاحق، وهذا ما جسدته سيميائية "بورس" التي << تندرج تحت علم المنطق >> 7 والذي حدد المقولات الفينومينولوجية في ثلاثية حاضرة في مختلف الظواهر، وسماها على الترتيب:

الأولانية (الماثول/Representation):

نها تضم الوجدان والأحاسيس والانفعالات وتنماز بالشمولية والكلية، ووجودها قائم بذاته ولا يرتبط بسابق له، فهي << الوعي المباشر>> 8 الذي يستعمل في التمثيل للثانيانية.

الثانيانية (الموضوع/ Obje):

إنها مرتبطة بحيز زمكاني معين وواقع أو تجربة حيوية، ويقول عنها بورس: " الثانيانية هي نمط كينونة الشيء كما هو في علاقته بثان، دون اعتبار لثالث كيفما كان نوعه " إن الثانيانية تقتضي بالضرورة وجود الأولانية وذلك لارتباطها بالمشاعر التي لا يمكنها أن تتواجد إلا في حال ارتباطها بآخر.

الثالثانية (مؤول/Interpretatant):

يعتبر المؤول العمود الفقري ضمن دائرة السميوز لأنه يربط الأول بالثاني في حيز يحيل فيه الأول الثاني عبر ثالث، فالأول << إمكان فقط ، أما الثاني فهو وجود خالص والربط بينهما لا يمكن أن يؤدي إلى إنتاج إدراك أو خلق تواصل دائم، إن الإدراك والتواصل ممكنان فقط من خلال إدخال عنصر ثالث يحول العلاقة بين الأول والثاني من الطبيعة العرضية واللحظية إلى ما يشد هذه العناصر إلى بعضها البعض من خلال قانون لا فكاك منه >> 9 كشفت مقولة بورس عن الإضافة النوعية التي جاء بها بعد دال ومدلول دي سوسير والتي تبلورت في المؤول الممثل الرمزي الذي يتوسط كل من الماثول والموضوع، ورأى في العلامة وجها للإدراك إذ لا يمكن بأي حال من الأحوال فصلها عن السميوز والذي بدوره يمثل السيرورة المؤدية إلى إنتاج الدلالات وهذه العلاقة الثلاثية تخضع لقانون الترتيب والتركيب.

لقد كان تأثر بورس بالمنطق الرياضي واضحا في صياغته لمقولاته الفلسفية الثلاث << فالواحد والاثنان والثلاثة هي أعداد كافية من الناحية البراغماتية وضرورية من الناحية المنطقية من أجل إنتاج علاقات لا نهائية >> 10 فقد أدخل المنطق لحقل العلوم الإنسانية ليصبح النص مولدا لمجموعة من الدلالات الزئبقية بكل شحناتها السوسيوسياسية والسوسيولسانية والسوسيوثقافية فتتيح للمتلقي فرصة الانتقال داخل حيثيات النص من الدلالة المتواطأ عليها إلى الماوراء من الدلالات الممكنة في سلسلة تحيل إحداها للأخرى ضمن نسق دائم التحول وهكذا << نتمكن من ربط الإشكالية اللغوية مع كل من تاريخ وثقافة المجتمعات فمن خلال أبحاث عالم الأنثروبولوجيا الإنجليزي " **مالينوفسكي Malinofsky** " في لسانيات المجتمعات البدائية، شنت ثورة منهجية في بنية تلك الإشكالية، فصار من غير الممكن أن نفهم بنية تلك اللسانيات

بمعزل عن ممارساتهم الثقافية والطقسية والدينية، وهذه الفرضية لازالت سارية المفعول، في درجة معينة على بنية لسانياتنا في فضائنا الثقافي >> 11 من خلال المقولة بدأت تطفو على السطح بوادر العلاقة المتينة بين الرؤية للعالم والسميوز، فلا يصبح النص النص كيانا منذورا بالانفتاح إلا وهو يغترف من الفضاء الثقافي، ليكون بذلك الانفتاح هو المعادل الحقيقي للسميوز والمشبع بالرؤى المكبوتة، ما يجعل من الأنساق العلاماتية خاضعة للتسيب والانفلات فيتم تأويلها عبر أفق منفتح المفهوم من قبل المتلقي، فالكون يحتكم لقانون حيوي يفجر ضوابط المحدودية للامحدودية القابلة للتغيير والتصعيد في كل حين، وبما أن المنطق هو أورغانون العقل وقاعدة الاستغراق فيه تعتمد قاعدتين كبرى وصغرى ونتيجة، فإننا يمكن أن نجمل ما قيل آنفا في الخطاطة الآتية:

_ **القاعدة الكبرى: الكون حيوي متغير.**

_ **القاعدة الصغرى: العلامة أساس الكون.**

_ **النتيجة: العلامة متغيرة زئبقية.**

إن العلامة المنفتحة ترث عن غيرها من العلامات ما يبعث على الاستمرارية في الكينونة على مر العصور والأجيال لأنها تبقى سابحة متماهية في فضاء الرؤية لدى المبدع، والرؤية تتلازم ومفهوم التماثل فلا وجود للرؤية إن لم يتماثل الإبداع مع البنى الذهنية << فالعالم الذي تحيل عليه العلامة عالم يتشكل ويتحلل داخل نسيج السميوزيس >> 12 ، إن العلامة البورسية تنماز بالشمولية والحيوية لأنها مشحونة بإدراك وفكر ومعرفة دلالية كامنة في فلسفته، ويمكن تمثيل العناصر الثلاثة لمقولات بورس بالخطاطة الآتية:

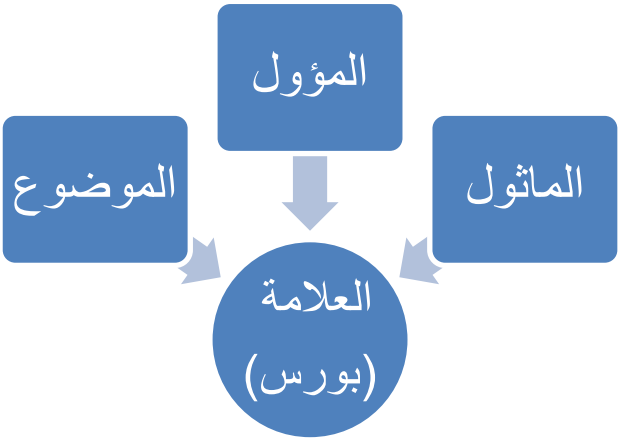

الشكل1. خطاطة تمثل مفهوم العلامة عند بورس

3. مقاربة قصيدة "أنبياء وشياطين" لعثمان لوصيف:

سيتناول هذا المحور قصيدة "عثمان لوصيف" "أنبياء وشياطين" المقتطفة من ديوانه "أعراس الملح"، والتي سنبحث فيها عن مكونات البنية الذهنية من خلال رصد دلالات العلامات وتتبع تناسل معانيها في النص، وأول ما نستهل به التحليل هو العنوان باعتباره عتبة نص صغرى موازية للقصيدة النص، فهو حامل لمجموعة دوال منسوجة بعمق بعيدا عن الابتذال، لأنه يمثل << مجموعة العلامات اللسانية من كلمات وجمل وحتى نصوص قد تظهر على رأس النص لتدل عليه وتعينه >> 13 فهو جاذب - بالدرجة الأولى- لفئة القراء لأنه يختصر دلالات النص ويعد مفتاحا له، يحدد كينونته بإعطاء تصور أولي عنه، ولا يمكن إغفال العنوان بأي شكل من الأشكال كونه الوسيط وحلقة الوصل بين المبدع والمتلقي.

_ **أنبياء وشياطين:** عنوان ذو نسق استعاري مركب من علامتين متناقضين لتوليد الدلالة، صارخ بالرمزية رمز "**النبي**" ورمز "**الشيطان**"، جملة أنبياء وشياطين جملة اسمية معطوفة لنكرتين متضادتين.

الأسماء توحي بالثبات والسكون، ثبات لنواميس الكون، فالأنبياء والشياطين كل منهما مخلوق لغاية ثابتة منوطة به، أما النكرة فتقف عند مجهول فاقد للهوية ينتمي لعالم أخروي غيبي، إن الأنبياء مجهولون لم تتم رؤيتهم عند أغلب الأمم، والأمم التي رأت أنبياءها أبيدت وانتهت منذ غابر السنين، وكذلك الشياطين وعالمهم اللامرئي، هذه الازدواجية جعلت الهوة تبدو جد سحيقة بين النبي والشيطان من حيث الصفة، والمخطط الآتي يوضح ذلك:

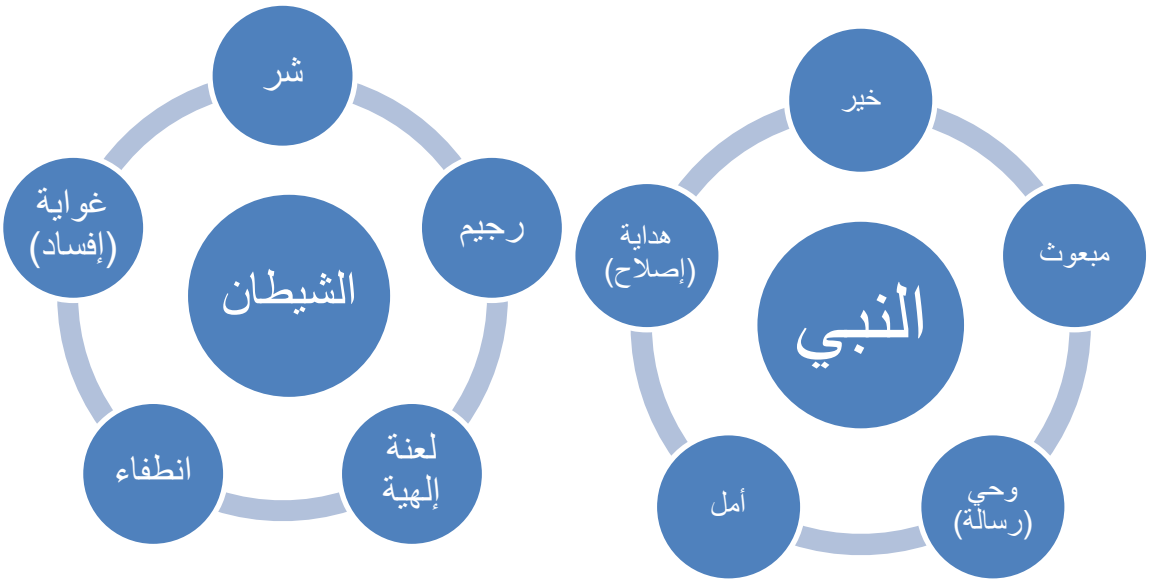

الشكل2. خطاطة لازدواجية المعنى بين علامتي النبي والشيطان

رمزي النبي والشيطان، لم يلتقطهما الشاعر عابثا إنما هما مقتطفان من باطن محيطه الاجتماعي بوعي صادق، يحملان بعدا دينيا وعرفيا وثقافيا وفكريا وسط بيئته، لأن جدلية الجنة والنار والنبي والشيطان مترعرعة ومتحللة في تربة وماء وهواء المجتمع الجزائري، يتنفسونها من ساعة القماطة الصغرى (الولادة) وانتهاء بالقماطة الكبرى (الموت).

الرمزان يحملان صفة الأصالة، رغم التمزق الحاصل بين النقيضين اللذين أخذ كل منهما منحى معاكسا للآخر تمام المعاكسة، أفضى بالشاعر ليعيش بين نيران الرفض والقبول وازدواجية التشتت، هاتان العلامتان تتشظيان أصالة لأن لهما ذكرا عريقا في القرآن العظيم، ومن ذلك قوله سبحانه جل في علاه:{ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ} 14، وقوله عز وجل:{ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ } 15، وقوله أيضا: { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ }16، وقوله: { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا }17، وقوله:{ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ }18، فالنبي في العرف الاجتماعي مقدس، يحمل الصفات الملائكية لأنه مصطفى من الله؛ وحامل لرسالة الوحي الإلهي بغية إصلاح الأرض ونشر السلام، فهو رمز للعظمة والتقدير والعصمة، وعلامة الشيطان هي الأخرى كان لها الحظ الأوفر في الذكر القرآني الكريم، الذي سنورد منه بعض الآي الحكيم، يقول المولى عز وجل: { فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ}19، ويقول سبحانه عز وجل:

{ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ }20، ويقول أيضا: { وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا }21، ويقول جل شانه: { وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا }22، ويقول: { وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ }23، والشيطان منبوذ وملعون، حامل لصفات الكبر والغواية والمعصية والإفساد، له في المخيال العرفي صورة بشعة لوحش يمثل كتلة سالبة من الشر، وهو عدو للبشر يحمل هذا الاسم وصفا وليس إشارة، ووصفه بالشيطانية هو نتيجة للأعمال التي يقوم بها، وعليه فالشيطان صفة لا تقترن بعالم الجن فحسب؛ إنما تخص عالم الإنس أيضا الحاملين لنفس الصفات القبيحة، { وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا }24.

الشكل3. خطاطة لمختلف صفات الشيطان

وبالتالي تكون علامتي النبي والشيطان مشبعة بالحمولات الإشارية، ذات البعد الدلالي الحيوي، فهما تمشيان بخطين متوازيين تتقابل فيه القداسة بالنجاسة، وتربط بينهما واو المعية العاطفة، لتظهر الصراع الأزلي بين قوى الشر والخير، الشكر والجحود داخل الذات البشرية، وتعطي ومضات بالتركيبة المزجية للذات البشرية والتي تعيش تناقضا وازدواجية، وعدم الصدق بين الظاهر والباطن، والقول والفعل، فالأغلبية أنبياء بأقوالهم شياطين في طبائعهم.

النَبِيوُّن اسْتَماتوا

فيكِ يا أَرضَ العَذابْ !

حامِلِينَ الجُرْحَ

شَمْسًا وكِتَابْ 25

إن هذا النص؛ يحيلنا لفهم دلالة الألفاظ في غير حدودها المحتسبة، لأنه تملكها علاقة دائرية بين الذات والعالم والنص، ولا شك في أن روابط الصلة بينها تعد روابط مبادلة، "النبيون" علامة دخلت حيز التعريف بعد أن كانت نكرة فنزفت بمعان غير التي نزفتها وهي في حيز التنكير، والخطاطة تترجم المرام:

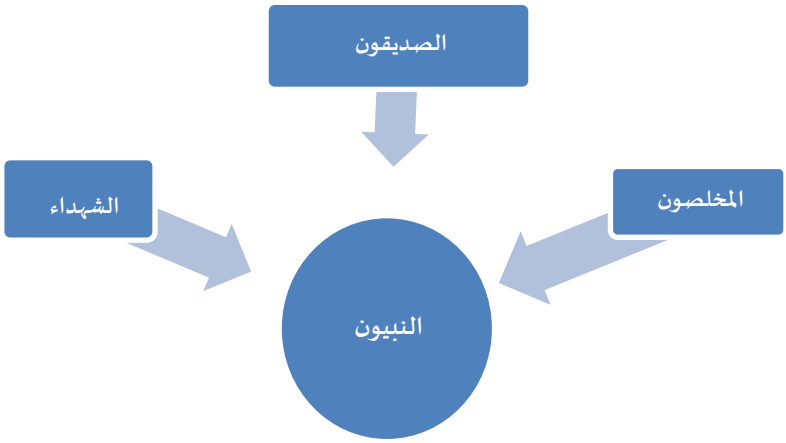

الشكل4. خطاطة تمثل البعد الدلالي لعلامة "النبيون"

النبيون ما هم إلا الشهداء المخلصين الصادقين، الذين استماتوا وضحوا وباعوا أنفسهم بالرخيس مقابل الغالي {**مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا** }26، وإذا كان الموت هو مفارقة للحياة وانقطاع عنها للاتصال بالعالم الأخروي، فإن الاستماتة هي اللامبالاة بالموت والوقوف في وجهه دون زعزعة أو ريب والاستماتة لا تكون إلا للأقوياء إيمانا واعتقادا بقضيتهم، وإن كان الموت يحمل في طياته حسا مأساويا يوحي بالنهاية إلا أن الشهداء هنا واجهوا الموت برحابة صدر رغم ما حملته نفوسهم من جراحات، إن "لوصيف" شاعر من مواليد 1951، وكان صغيرا أيام الثورة المظفرة لكنه كان حاملا لآهات الذكريات المتراكمة في ثنايا حياته الضائعة، مستشعرا بروحه المسجونة في دمار الماضي لكل ما كان يجوب في عالمه المكلوم، وإن لم يحمل السلاح في الثورة لكنه عاش تفاصيل الدمار الذي خلفه المستدمر مترسبا في عمقه وذهنيته شكلا صامتا من أشكال الرفض في الأمس، ولما تأتت له الفرصة ونضجت تجربته الحياتية تجشأ ألم الإنسان الجزائري الذي عانى من أكثر استدمار همجي على مر التاريخ والعصور فترجم رفضه اليوم لكن بشكل صاخب مراهنا على ملكته وتجربته وذاته،فراح يكشف الحجب عن كل الطابوهات المسكوت عنها.

فيك يَا أَرْضَ العَذَابْ !

الجزائر أرض العزة والإباء، الشموخ والطموح مهد الشهداء والعلماء لم تعش الاستقرار يوما منذ فجر تاريخها القديم الممتد لأزيد من 500 ألف سنة مرورا بحضارات شتى من الأمازيغية إلى النوميدية فالفينيقية والوندالية والبيزنطية إلى الاحتلال الإسباني والحكم العثماني وبعده الاحتلال الفرنسي ثم العشرية الدموية السوداء، كل هذه الترسبات الماضية في جيولوجيا المجتمع الجزائري أسهمت في صنع تاريخه وسننه الثقافي فكرا ودلالة وقانونا، وكذا جراحه الغائرة في خارطة تضاريسه الصعبة الوعرة، إن "النبيين" نزفوا من ألم الدمار في أرض العذاب جروحا لا تندمل.

حَاملينَ الجُرْحْ

شَمْسًا وكتَابْ

الجرح محمول شمسا ساطعة وكتاب، إن انحراف النسق في هذا السطر من القصيدة كان انحرافا أسمعنا أنات الدوال بين الكلمات بصورة جهرية، فالشعب لم يبرأ من النكبات المتوالية عليه منذ عهد الاستدمار لقد كُسرت قوميته ووجد نفسه يتخبط في أرض منهارة يعاد بناؤها من النقطة الصفر، لكنها كلما اشتد عودها قليلا واستوت على سوقها تعود للانتكاس مجددا، إن لوصيف لم يبك حيزه الذي يعيش فيه فحسب بل بكى وطنا طاهرا ممتد الأطراف عاثت فيه فرنسا العجوز اللعينة فسادا ومزجت سمها الزعاف بذرات ترابه، فمازال أهله يقتاتون على جرعات من سياستها الخبيثة، وكذا الحال المزري والانهيار الذي عاشه الوطن أيام الستينات على مختلف الأصعدة اجتماعيا واقتصاديا نظرا لتعفن الجهاز السياسي والصراع على الحكم والسلطة، لتطل بعدها عشرية الدمار الشامل التي أبيد إثرها الأبرياء بالألوف، فعاد الوطن إلى حالة اللاستقرار وتراجعت أوضاع الناس وساء حالهم لأنهم عاشوا وسط رعب التهديد بالقتل في كل دقيقة وفقدوا طمأنينة الأمن والسلم.

رغم كل هذا الحزن والدمار الذي يلفظه شعب الجزائر إلا أن الشاعر كان يطل من كوة للأمل على مستقبل منير، جسده في:

شَمْسًا وَكتَابْ

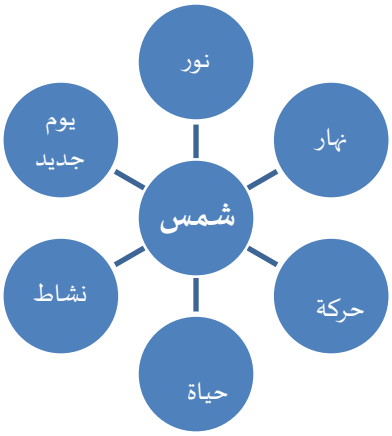

الشكل5. خطاطة تعبر عن إشعاع علامة الشمس

الشمس رمز للإشراق وغد جديد ينبض بإشعاع الأمل، رمز للقوة والدفء وانبعاث دبيب الحياة في الحجر والشجر فتزهر الأرض ويخضر الشجر، والكتاب رمز العلم والفكر والتطلع للانفتاح والبناء والإعمار.

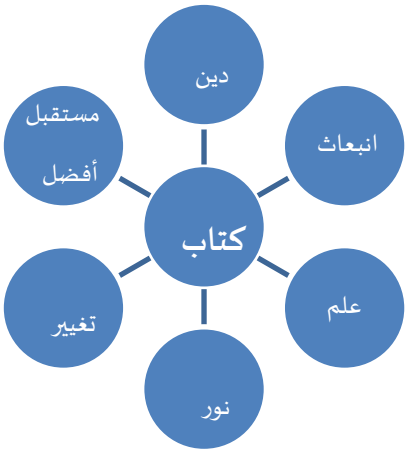

الشكل6. خطاطة تعبر عن تشظي علامة الكتاب

في هذا المقطع من القصيدة ورد التشاكل والتباين على مستوى البنية اللغوية :

- **التشاكل:** الطغاة = العتاة
  شمسا = كتاب
  عبثوا = نصبوا
- **التباين :** النبيون / الشياطين

والشياطين العتاة

والطُّغاة

عَبَثوا فَوقَ ثَراكْ

نَصَبوا فيكِ الشِّراكْ

فيكِ

يا أَرضَ العَذَابْ 27

وصفُ لوصيف الشياطين بقوله: عتاة، طغاة ... يعد تعبيرا مأساويا حالكا جسد من وراء هذا التشاكل بين اللفظتين رؤية شاملة اختصرت كل آثام الشياطين وأجملتها في متلازمتي عتاة وطغاة انطلق فيها الشاعر من حالة عامة ليبحث عن حالة أخرى أكثر عمقا وخصوصية، فقد خصّ الشيطان بأنه عاتٍ وطاغ وللعقل البشري أن يتخيل كيف يكون العتوّ في الأرض وكيف يتجسد الطغيان بكل أشكاله الهمجية واللا إنسانية، لا بل يتعداه لأبعد من ذلك لتحقيق صفة المبالغة فيما فعلته فرنسا بالشعب الجزائري حيث يصبح العقل البشري قاصرا عن تصور مستوى الطغيان الذي وصل إليه هذا الاحتلال الغاشم، إذ أوحت اللفظتان للمتلقي أن يخلق وجودا أكثر عمقا وغرابة - من صور الظلم والعربدة التي انتهجتها فرنسا في حق شعب بأكمله - من الوجود العياني الذي يقبله العقل البشري في واقعه العادي، فرنسا لم تلِق بها إلا سمة "الشياطين" الذين لايحكمهم قانون أرضي ولاتردعهم شريعة سماوية أن يعيثوا فسادا.

عَبَثوا فَوقَ ثَراك

نَصَبوا فيك الشِّراك

"العبث" علامة ملتذة بالصمت تغرق الرؤيةُ في سديمها، وأي عبث هذا الذي يتحدث عنه الشاعر؟ إنه عبث فوق ثرى الأرض، والثرى رديف للاستقرار، للثبات، للحرث، للحياة، للقوة، للصلابة، للتحمل، للأرض بكل خصائصها الفيزيائية والصخرية، فإذا تم العبث به امحت كل آثار العيش فيها وغرقت في وحل الانهيار، هناك في هذا الثرى نصبوا شراكهم والشراك يفرز دلالة توحي بالصليب الذي غُرزت أعمدته في قلب ثرى الوطن الجزائري، وفخ حملات التبشير التي كان يغرد بها الاحتلال ويدعو لنشرها على حساب الدين الإسلامي.

الشكل6. خطاطة للمعاني الكثيرة لعلامة العبث

1.4 البنية الصوتية في إيقاع القصيدة:

الإيقاع نوعان، داخلي وخارجي أما الداخلي فيراعي انسجام الحروف وتناسق الألفاظ والتراكيب فيما بينها وما تفجره من دلالات كأن يتكرر صوت معين داخل القصيدة يحاول من خلاله الشاعر تمرير رسالة، كما يسهم هذا التكرار في خلق نسق تناغمي يضفي لمسة جمالية ونغمة ساحرة تجذب القراء، وفي "أنبياء وشياطين" نوع الشاعر في تكراراته بتوظيفه للأصوات الانفجارية كحرف التاء (استماتوا، العتاة، الطغاة، كتاب) والباء (النبيون، العذاب، كتاب، نصبوا) والطاء (الشياطين، الطغاة) إنها أصوات تفجر انفعالات الشاعر المكبوتة فيسافر بالكلمات من ذاته الثائرة ليحكي تجربته الوجدانية على بكارة الورقة بقلم ينزف صخبا وصراخا، معبرا عن أنينه وحزنه في قوله:

حامِلِينَ الجُرْح

عَبَثوا فَوقَ ثَراك

نَصَبوا فيكِ الشِّراك

نلحظ تكرار صوت الراء الذي منح جرسا موسيقيا قويا يشاكل الدفقات الشعورية المؤلمة التي يلفظها الشاعر من ثنايا وجدانه، إضافة إلى تكرار الصوائت الألف والياء والواو، فهي المتحكمة في طول وقصر الصوت من حيث التنويع في نغماته ونوتاته فتكسب الحرف مرونة وانسيابية، ومن التراكيب التي كررها الشاعر قوله:

فيك

يا أَرضَ العَذَابِ

والتي زادت من كثافة الإيقاع بحس موسيقي داخلي ليؤكد الشاعر بذلك ديمومة واستمرارية العذاب المقترن بأرض وطنه الحبيب.

أما الإيقاع الخارجي فقد كسر قيود التقليد وتجاوزها إلى توظيف الرمز (النبيون، الشياطين، الشمس) وكان هذا التوظيف انعكاسا لوضع نفسي تُرجم في أسطر مقتضبة موجزة لكنها تتشظى إيحاء مختارا لها تفعيلة بحر الرمل المجزوء وهي عبارة عن ست تفعيلات: "فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن ... فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن" يوضحها التقطيع الآتي:

النَّبِيّون اسْتَماتوا

0/0//0/0/0//0/

فاعلاتن فاعلاتن

فيكِ يا أَرضَ العَذابْ !

0/0//0/0/0//0/

فاعلاتن فاعلاتن

حامِلينَ الجُرْحَ

/0//0/0//0/

فاعلاتن فاع

شَمْسا وكِتابْ

0/0////0/0/

لاتن فعلاتن

والشَّياطينَ العُتاةْ

0/0//0//0/0//0/

فاعلاتن فاعلاتن

والطُّغاةْ

0/0//0/

فاعلاتن

عَبَثوا فَوقَ ثَراكْ

0/0////0/0///

فعلاتن فعلاتن

نَصَبوا فيكِ الشِّراكْ

0/0//0//0/0///

فعلاتن فاعلاتن

فيكِ

/0/

فاع

يا أَرضَ العَذابْ

0/0//0//0/0/

لاتن فاعلاتن

4. تحليل النتائج:

إن أهم النتائج التي تم التوصل إليها في هذه الورقة البحثية يمكن إجمالها في النقاط التالية الذكر:

- الشاعر يحمل في ذهنيته رؤية بعيدة الأمد، تستشرف مستقبل وطنه.
- ارتبط شعر لوصيف برؤية إيديولوجية عبر عنها من خلال الأعراف، الدين، الظلم، التعايش، الثورة...
- يمثل عنوان القصيدة عتبة تفض بكارة القصيدة ويربطنا بها لأنه فتح تأويلات عدة لمسنا امتدادها على طول القصيدة .
- استطاع الشاعر أن يكشف لنا في قصيدة واحدة عن عدة علامات نصية تاريخية وأدبية ودينية، تعكس الثقافة الشعبية حيث تفاعلت بقوة لتشكل النص.
- إن الإبداع قبل أن يخرج للنور مكتمل النمو ويستحق أن يطلق عليه لقب الإبداع الفني لا يبنيه الدال أو المدلول فحسب ولا العلامة التي تكتنزهما معا لوحدها إنما هو كل متكامل منسق

لجملة من العلامات المتراصة فتنصهر في بوتقته العديد من التفاعلات شديدة التعقيد بطريقة فنية عجيبة لا يقدر عليها إلا المبدع.

5. الخاتمة:

لقد كانت هذه الدراسة وقفة تحليلية لقصيدة "أنبياء وشياطين" لعثمان لوصيف من ديوانه "أعراس الملح"، والتي لم يسبق لنا العثور على دراسة نقدية تحليلية تناولت القصيدة معتمدة هذه المقاربة على مستوى الرؤية والسميوز بغية الوصول لقراءة دلالات النص؛ باعتبار العلامة نواة يتفتق منها البعد المفهومي الذي يرتجيه الشاعر من عمله، وما تتركه هذه العلامة من أثر في نفس المتلقي كونها بنية مفتوحة ومستغرقة فتكون هي بؤرة الانطلاق لبلوغ السميوز، وعليه تم رصد علاقة التشاكل التي ترتبط فاعليتها بالتجربة الشعرية والمستوى التعبيري للشاعر، من أجل نقل رؤيته القابعة في بنى النص العميقة، فكان السميوز بمثابة مرفأ عبور إلى فضاء النص وملامسة دلالاته الخامدة التي تحمل تصعيدا تخيليا، وإن كانت تركيبتها من واقع الشاعر المرير؛ إلا أنها جعلت المتلقي يسافر في أقاليم القراءة باحثا عن ملاذه في اليقين بين تعرجات النص المعتمة بعلامات استفهام تنتظر تأريخا للإجابة عنها.

هوامش البحث:

1. أدونيس، الثابت و المتحول، بحث في الاتباع و الإبداع، دار العودة بيروت، الطبعة الأولى، 1978، الجزء الثالث، ص 168
2. لوسيان غولدمان، المادة الديالكتيكية وتاريخ الأدب والفلسفة، ترجمة: نادر ذكرى، دار الحداثة، بيروت لبنان، (ب.ط)، (ب.ت)، ص8
3. ريتا عوض، أدبنا الحديث بين الرؤيا والتعبير، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت، الطبعة الأولى، أبريل 1979، آخر الغلاف
4. جمال شحيد، في البنيوية التركيبية، دراسة في منهج لوسيان غولدمان،دار ابن رشد للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، 1982، ص 28
5. Rioux Marcel, Remarques sur les conce.STkpts de la vision du monde et de totalité, Revue, Anthropologie , vol 4, n°2 1962, p10
6. Benveniste (Emile): problèmes de linguistique général , éd.Gallimard, 1974, p 45
7. Peirce , ch,S, Ecrits sur le signe, rassemblés, traduits et commentés par Gerard deledalle, édition du seuil, Paris, 1978, p212
8. Peirce, ch, S, écrits sur le signe, op cit, p 76
9. سعيد بنكراد، السيميائيات والتأويل، مدخل إلى سيميائيات ش.س بورس، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، 2005 ، ص 48
10. أحمد يوسف، الدلالات المفتوحة، مقاربة سيميائية في فلسفة العلامة، منشورات الاختلاف، الجزائر، المركز الثقافي العربي،المغرب، الدار العربية للعلوم، بيروت، الطبعة الأولى،2004-2005 ، ص 134
11. Adam Schaff: De la nécessité de recherches Marxistes sur le langage, un essai sur la philosophie du langage, dans son livre langage et connaissance, traduit du polonais par Clair Brendel édition anthropos, Paris,1969, p 214
12. David Savan, la mémiosis et son monde, il langage n°58, p 71
13. محمد مفتاح، دينامية النص تنظير وإنجاز، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب،(ب.ط)، (ب.ت)، ص 72
14. سورة الأعراف الآية 157
15. سورة التوبة الآية 61
16. سورة التوبة الآية 73

17. سورة الأحزاب الآية 38
18. سورة الأحزاب الآية 56
19. سورة البقرة الآية36
20. سورة البقرة الآية 208
21. سورة آل عمران الآية 175
22. سورة النساء الآية 119
23. سورة الأعراف الآية 200
24. سورة الأنعام الآية 112
25. عثمان لوصيف، أعراس ملح، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، (ب.ط)، 1988، ص 19
26. سورة الأحزاب الآية 23
27. عثمان لوصيف، أعراس ملح، ص 19